الغزل العذري وحقيقة الجذور

(نشأة الغزل العذري)

أ.م.د.جبار عودة بدن الشحمان

كريم قاسم جابر الربيعي

كلية التربية – جامعة البصرة

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعـــــد .

تنطلق هذه الدراسة من متصورات جوهرية في قراءة " الغزل العذري وحقيقة الجذور " وبالتحديد نشأة الغزل العذري . فاشتغال هذه الدراسة منصب على معرفة الجذور التي أسست لهذا النوع من الغزل ، وليس الإبداع الموجود في هكذا غزل .

وانطلاقاً من هذه المتصورات التي تعتمد عليها القراءة الحديثة تنطلق دراستنا في معرفة " الغزل العذري وحقيقة الجذور " . فضلاً وأن البحث في الجذور ليس مطلباً سهل المأخذ ، ولكنه يحتاج إلى ممارسة مستمرة وخبرة كبيرة ، وهذا لا يتأتى إلا بالوعي الكامل بالمرتكزات الأساسية لمعرفة هذه الجذور التي مهدت لنشأة الغزل العذري .

وقبل الولوج في دراسة " نشأة الغزل العذري " عن طريق جذوره الجاهلية لا بد لنا من تعريف بسيط لهذا النوع من الغزل .

الغزل العذري : هو لون من ألوان الغزل عرفه العرب في العصر الجاهلي ، يطغى عليه الحزن واليأس والحرمان ونجد فيه حرارة الوجدان مع عاطفة متدفقة ، وتشيع فيه حرارة العاطفة التي تصور خلجات النفس وفرحة اللقاء وآلام الفراق ، ويقتصر فيه الشاعر على محبوبة واحدة ردحاً من حياته أو مدة حياته .

لذا فمن الطبيعي أن نجد جذوراً في الشعر العربي للغزل العذري قبل العصر الأموي تصور السمات المذكورة سلفاً ، وإن خير من مثل هذا الغزل في العصر الجاهلي الشعراء المتيمون . ومن خلال هؤلاء الشعراء سوف نثبت نشأة هذا الغزل . فضلاً عن ذلك فإن لخصائص الغزل العذري وقصص المتيمين الجاهليين أثر كبير في معرفة جذور هذا النوع من الغزل .

نشأة الغزل العذري :

الحديث عن الغزل العذري في العصر الجاهلي حديث شيق ، حيث سار هذا الغزل بخطى تبدو سريعة في حين ووئيدة في حين آخر ، وهو تفاوت لابد منه ، اقتضته ، بل فرضته ظروف الجاهليين البيئية والاجتماعية وما يتصل بهما من عوامل وأسباب .

وطبيعي أننا نقصد بأصل الغزل العذري ، الجذر الذي قام عليه هذا البناء المتكامل في الشعر العربي ، ونقصد بالنشأة ، التطور الذي مر به الغزل العذري في رحلته الطويلة من العصر الجاهلي إلى العصور التي تلته فيما بعد **(1)** .

فالمتيمون الجاهليون **(2)** هم طليعة الاتجاه (اتجاه الغزل العذري) ، صاغوا شعرهم على غير نماذج سابقة ، ثم خلفوه لمن جاء بعدهم من العذريين نماذج يحتذونها ويطورونها وينهضون بفنهم الشعري على مثالها . وفيما عدا ذلك فشعر المتيمين في اتجاهه العام وفي صورته الثابتة هو شعر العذريين نفسه ، أو - بعبارة أدق - هو الخطوة الأولى في هذا الاتجاه الذي سار فيه العذريون بعد ذلك ، أو هو الخطوة المميزة لهذه الصورة التي استغلهـــا العذريون واعتمدوا عليها في تطوير فنهم ، والنهوض به ، والوصول به إلى تلك القمة العالية التـي وصلوا إليها . فالاتجاه العام لشعر المتيمين هو ذلك الاتجاه الصراعي الذي يسجل جوانب المأساة التي يعيشها أصحابه ، والذي رأيناه من قبل في شعر العذريين ، والصورة الثابتة له هي تلك الصورة المثالية التي يعيش أصحابها في عالم خلقوه لأنفسهم ، وهي الصورة نفسها التي رأيناها أيضاً عند العذريين **(3)** .

وينقسم الدارسون في نشأة الظاهرة العذرية (الغزل العذري) على قسمين ، قسم يرى أن أصوله مشتقة من مقدمات وقصائد وقعت في الشعر الجاهلي . وقسم آخر يرى أنه أموي النشأة وأنه من المستحيل أن يظهر بطهارته ، وقدسيته قبل عصر بني أمية **(4)** . ونحن نميل مع الاتجاه الأول حيث يرى أحد الباحثين (إن الغزل العذري لم ينشأ في العصر الإسلامي ، ولم يَصِر فناً مستقلاً في العصر الإسلامي ، وإنما نشأ ، وكان فناً مستقلاً في العصر الجاهلي . ولكن هذا لا يمنع من الإقرار بأن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة الحب وعذرية الغزل ، لأن الإسلام نظم علاقة الرجال بالنساء ، وحظر الاستجابة للغريزة الجنسية إلا من طريق الزواج ، وحرم البغاء ، وسما بالعقيدة والأخلاق ، فكان منمياً للحب العذري لا منشئاً لهما) **(5)** . وأضاف الباحث قائلاً : (إن العصر الجاهلي هو منشأ الغزل العذري) **(6)** .

وما يؤيد ما ذهبنا إليه قول أحد الباحثين : (شاع الغزل العذري العفيف في العصر الأموي وعرفته غير قبيلة ... إلا أنه ليس بوليد العصر الأموي ، وإلى امتداد جذوره في العصر الجاهلي) **(7)** .

وهذا ما يذهب إليه باحث آخر بعد أن ذكر طائفة من شعراء الغزل الحسي ، يقول : (على أن منهم من كان يتسامى في غزله حتى ليمكن القول بأن الغزل العذري له أصوله في الجاهلية عند عنترة وأضرابه) **(8)** . وآخر يقول : (لقد أنحدر الغزل الأموي من الغزل الجاهلي ...) **(9)** .

إن الظاهرة العذرية لما تحمله من نظرة روحية وبعد إنساني ونزعة عاطفية ، جعلت بعض الدراسات الحديثة لا توقف مصادر نشأتها عند الحيز المكاني والزماني الذي نشأت فيه وإنما تذهب إلى أن إرهاصاتها وجدت قبل الحقبة الأموية ببعيد (إذ كان للبيئة العربية أثر في التمهيد لنشأة هذا النوع من الغزل ، إذ كانت مهداً له والبادية بما فيها من مناظر جميلة رتيبة ، وبما كانت تدفع إليه من الشظف والجهد في سبيل العيش وما كانت تستلزمه من تعاون قبلي ، ساعدت على تكوين أخلاق وتقاليد جديدة ، سرت في روح العربي وتمكنت من نفسه ، ومنها البطولة في الحرب ، والوفاء بالعهد ، وحماية الجار ، وقد طبعت هذه التقاليد والأخلاق العربي على الشهامة والنجدة والاعتداد بالنفس ، وهي من صفات الفروسية التي ظهرت آثارها في عاطفته ، وحبه ، فهو يحب أن يظهر أمام حبيبته بمظهر القوي الذي يحميها ويخاطر في سبيلها) **(10)** .

فأخلاق العربي لها أبعاد حضارية اصطبغت بها نفسه وكان لها التأثير البالغ في نظرته للمرأة كمحبوبة ، وبذلك يجد الدارس أن أخلاق العربي ما هي إلا افرازات للطبيعة التي كان يعيش فيها ، فكان يريد أن يحقق ذاتـه من خلال الآخر " المحبوب " ولذلك كانت المرأة بالنسبة إليه طرفاً يحقق ذاته من خلاله فيخاطر بنفسه مـــن أجل أن يظهر أمامها بمظهر الكمال المطلق **(11)** .

فالظاهرة العذرية ليست وليدة العصر الأموي وإنما كانت لها إرهاصات قبل هذه المدّة ، وأن اكتمال صورتها في هذه الحقبة دليل على أن جذورها سابقة لها لأنه من غير الممكن أن تولد واقفة بغير إرهاصات سابقة لها ، وما فروسية الجاهلي وتعلقه بالمحبوبة في قيمتها المطلقة إلا دليل على عذرية الجاهلي ولكنها ليست كعذرية الأموي في بعدها الروحي والعرفاني وإنما إرهاص أولي للعذرية الأموية .

لذا يمكننا أن نقول إن الغزل العفيف شجرة نبتت بذرتها في الجاهلية ، ثم ترعرعت وازدهرت في العصر الأموي واستمرت في العصر العباسي . وهكذا ظلت لهذا الغزل فروعه ... بعكس ما يذهب إليه " حسان أبو رحاب " مـــن أنه غاب واحتجب لأن أسبابه لم تعد قائمة فيه ، ولأنه وجد فـــي هذا العصر مـــن العوامل والأسباب ما ينافيه **(12)** .

وإن الجذور الأولى لهذه الظاهرة متأصلة فـي تاريخ الأدب العربـي القديم ، ومنشؤها في الشعر العربي يرتد إلى العصر الجاهلي ، لأننا نجد في الشعر الجاهلي قصائد ومقطوعات عبر فيها شعراؤها عن وجدهم ، وأشواقهم الروحية أكثر مما عبروا عن رغباتهم الجنسية .

ومما تقدم ندرك أن العصر الجاهلي عرف هذا الغرض الشعري وعرف مجموعة من الشعراء المتيمين الذين كشفوا من خلال تجاربهم عن القيم الروحية في هذا الحب ، فكان أن اقترنت هـــذه التجارب بأسماء حبيبات معينات من مثل :

المرقش الأكبر وأسماء : وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته أسماء وكان أبوها زوَّجها رجلاً من مُراد والمرقش غائب ، فلما رجع أُخبرَ فخرج يريدها ومعه عسيف له من غُفيلة فلما صار في بعض الطريق مرض حتى ما يُحمل إلا معروضاً فتركه الغُفيليُّ هناك في غارٍ وانصرف إلى أهله فأخبرهم أنه مات فأخذوه وضربوه حتى أقرَّ فقتلوه . ويقال إن أسماء وقفت على أمره فبعثت إليه فحُمل إليها وقد أكلت السباعُ أنفه فقال :

يا راكباً إما عرضت فبلغـن أنس بن سعد إن لقيت وحرمـــــلا

لله دركـــــما ودرُ أبيكمـا إن أفلت الغُفليُّ حتى يقتـــــــلا

من مبلغُ الفتيـان أن مُرقشـاً أضحى على الأصحاب عبئاً مُثقـلا

ذهب السباعُ بأنفه فتركنـــه ينهسن منه في القفار مُجـــــدلا

وكأنما تردُ السباع بشلـــوهِ إذ غاب جمعُ بني ضُبيعة منهـــلا **(13)**

ويقال بل كتب هذه الأبيات على خشب الرحل وكان يكتب بالحميرية فقرأها قومه فلذلك ضربوا الغُفيلي حتى أقرَّ . ويقول المرقش الأكبر مصوراً حيرته النفسية وما يعانيه معها من قلق وعذاب وألم وهموم :

أغالِبُكَ القلبُ اللجوجُ صبابـــــةً وشوقاً إلى أسماء أم أنت غالبـهْ

يهيم ولا يعيا بأسماء قلبُـــــــه كذاك الهوى إمرارُه وعواقبـــهْ

أيُلحى امرؤ في حب أسماء قد نأى بغمزٍ من الواشين وازورّ جانبـهْ

وأسماءُ همُّ النفس إن كنتَ عالمـاً وبادى أحاديث الفؤاد وغائبـــهْ

إذا ذكرتها النفس ظلتُ كأننـــــي يُزعزعني قفقاف وِرد وصالبـــهْ **(14)**

فهو محير القلب في حبها ، يعاني من ذلك الصراع الحاد العنيف الذي يعاني منـــه كل عاشق من المتيمين ومـــن العذريين . لقد أصبحت أسماء كل شيء في حياته ، إنها أمله الذي يرتجيه ونجوى فؤاده التي يعيش معها ، وإنه ليذكرها فيضطرب جسده وتأخذه الرعدة من كل أطرافه كأنما مسته حمى شديدة ، إنها نار تحرق جوانحه ، ولكنه مع ذلك يحبها ولا يستطيع نسيانها أو السلو عنها ، لقد غلبه حبها وانتصر عليه في ذلك الصراع المستعر بين عقله وقلبه ، وهو صراع ليست له دائماً سوى نتيجة واحدة ، هي غلبة القلب وانتصاره ، ووقوف العاشق عاجزاً أمام سهام الحب تنهال عليه من كل جانب فلا يملك لها دفعاً ولا ردًّا ، تلك السهام التي صور" ابن العجلان " فعلها في نفسه في هذين البيتين :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمـــة إذا شئتُ لمساً للثريا لمستـــها

أتتني سهامٌ من لحاظٍ فأرشقت بقلبي ولو أسْطيعُ ردّا رددتهـا **(15)**

إنها شكوى العاشق الجريح الذي تتساقط عليه سهام العيون لتستقر في قلبه ، بل هي وثيقة استسلام للمحبوبة يوقعها العاشق معترفاً بهزيمته في ميدان الحب بعد أن كان قبل لقائها شديد البأس بعيد الهمة . لقد أصبح أسيراً في يديها لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وهو أسرٌ كان كل عاشق من المتيمين والعذريين على السواء يشعر بأنه يقضي فيه شبابه ، بل حياته كلها ، وليس له من أنيس فيه سوى ذكريات ماضيه يحملها إليه الليل على أجنحته الحالمة ، فتذوب لها مهجته ، وتسيل دموعه ، على نحو ما يصور " عمرو بن كعب " في هذه الأبيات :

إذا جن ليلٌ فاضت العين أدمعا على الخد كالغدران أو كالسحائب

أودّ طلوع الفجر والليل قائل لقد شدت الأفلاك بعد الكواكب

فما أسفي إلا على ذوب مهجتي ولم أدرِ يوماً كيف حال الحبائب **(16)**

ومثلما كانت هذه الذكريات تُسيل الدموع من عيني" عمرو على عقيلة " ، وتنتزع الزفرات الحارة من صدره ، كانت تُدير " بالمرقش الأصغر " الأرض ، وتشرده في البلاد خلف محبوبته فاطمة التي لم يكن يرى في النساء مَنْ تُسليه عنها أو تُنسيه حبها :

صحا قلبه عنها على أن ذِكرةً إذا خطرت دارت به الأرض قائما

أفاطم لو أن النساء ببلدةٍ وأنت بأُخرى لا تبعتكِ هائما **(17)**

والمرقش الأكبر هو أول من هلهل بالشعر ، إذا أخذنا الهلهلة بمعنى الإطالة ، يروي له المفضل الضبي ، فيما يرويه له من قصائد ، قصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً ، وهي القصيدة التي تبدأ بقوله :

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان رسمٌ ناطقاً كلَّم **(18)**

غير أن الهلهلة باتت لا تطلق إلا على المهلهل – وهو عدي بن ربيعة – فإذا كانت أطول قصيدة عنده تبلغ سبعة وعشرين بيتاً ، برواية أبي علي القالي وهي التي تبدأ بقوله :

أليلتنا بذي حُسُمٍ أنيري إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحُوري **(19)**

فكيف يكون هو مهلهل الشعر الأول ؟ **(20)**

والمرقش الأصغر وفاطمة : يُقال إنه أخو الأكبر ويُقال إنه ابن أخيه ، وهو أحد عُشاق العرب المشهورين وصاحبته فاطمة بنت المنذر وكانت لها خادمة تجمع بينهما يقال لها " هند بنت عجلان " فلذلك ذكرها في شعره . وكان للمرقش ابن عم يقال له عمرو بن جناب بن عوف بن مالك لا يؤثرُ عليه أحداً وكان لا يكتمه شيئاً من أمره فألحَّ عليه أن يخلفه ليلةً عند صاحبته فامتنع عليه زماناً ثم إنه أجابه إلى ذلك فعلمه كيف يصنع إذا دخل عليها فلما دنا منها أنكرت عليه مسه فنحته عنها وقالت : لعن الله سراً عند المُعيدي وجاءت الوليدة فأخرجته فأتى المرقش فأخبره فعضّ على إبهامه فقطعها أسفاً وهام على وجهه حياءً **(21)** فذلك قوله :

ألا يا اسلمي لا صرم لي اليوم فاطما ولا أبداً ما دام وصلُـكِ دائمـــــا

رمتك ابنةُ البكري عن فـــرع ضالةٍ وهنَّ بنا خُوصٌ يُخلـن نعائمـــــا

تراءت لنا يوم الرحيل بـــــــوارِدٍ وعذب الثنايا لم يكن مُتراكمـــــا

سقاهُ حبيُّ المُزنِ في مُتهلـــــــلٍ من الشمس رواهُ رباباً سواجمـــــا

صحا قلبهُ عنها على أن ذكـــــــرةً إذا خطرت دارت به الأرض قائمـا

تبصـر خليلي هل ترى من ظغائـن خرجن سراعاً واقتعدن المفائمـــا

وإنـــي لأستحيي فُطيمة جـــائعـاً خميصاً وأستحيي فُطيمة طاعمـــا

وإنـــي لأستحييك والخـــرقُ بيننـــا مخافة أن تلقي أخاً لي صارمـــا

وإنـــي وإن كلت قلوصي لـــراجـمٌ بها وبنفسي يا فُطيمَ المراجمـــا

أفاطـــمَ إن الحب يعفو عـن القلـى ويُجشمُ ذا العرضِ الكريم المجاشما

أفاطـــمَ لو أن النســـــاء ببلـدةٍ وأنت بأُخرى لاتبعتك هائمـــــا

وآلى جنـــابٌ حلفةً فأطعتـــــهُ فنفسك ولِّ اللوم إن كنت لائمـــا

فمَن يلقَ خيـــراً يحمدِ الناس أمـرهُ ومَن يغوِ لا يعدم على الغيِّ لائمـا

ألم ترَ أن المرءَ يـــجذمُ كفـــــهُ ويجشمُ من لومِ الصديق المجاشما

أمِنْ حُلُمٍ أصبحتَ تنكتُ واجمـــــاً وقد تعتري الأحلام مَنْ كان نائمـا **(22)**

فالشاعر بدأ القصيدة منوهاً بالوفاء ، وبين أثر الحبيبة في قلبه يوم الفراق ، ووصف حسنها ، والذاكرة التي تعاوده مما فعل . ثم نعت الظعائن ورسم رحلتهن ، وأشار بعد إلى استحيائه فاطمة لما سبق من القول ، وتمنى لها خير الأماني ، واستعطفها ، وأبان لها عن قوة حبه ، وأشار إلى حلف عمرو بن جناب . وتحدث عما تقتضيه الصداقة من تجشم المجاشم وركوب الهول . ثم وصف حاله في الوجوم كأنه حالم . لقد سيطر حبها على نفسه فهو لايستطيع عنها بعداً ، ولا يملك إذا ما غابت عنه عزاء يتسلى به عنها ، ولا صبراً يخفف من أحزانه .

ويقال هو ابن حرملة وصاحبته هند بنت عجلان أمة كانت لبنت عمرو بن هند **(23)** وفيها يقول :

لابنةِ عجلانَ بالجو رسومْ لم يتعفين والعهدُ قديمْ

لابنةِ عجلانَ إذ نحنُ معاً وأيُ حالٍ من الدهرِ تدومْ

يا ابنةَ عجلان ما أصبرني على خُطُوبٍ كنحتٍ بالقدومْ

وللفتى غائلٌ يغولُهُ يا ابنةَ عجلانَ من وقع الحُتُومْ **(24)**

وقد عرفنا خبرها في القصيدة السالفة الذكر . ولم ينسَ الشاعر في نهاية القصيدة أن يذكر لابنة عجلان أن الموت غاية كل حي .

<u>وعبد الله بن العجلان :</u> وكانت له زوجة يقال لها هند ، فطلقها ، ثم ندم على ذلك ، فتزوجت زوجاً غيره ، فمات أسفاً عليها **(25)** .

فقد عاش مكابداً للحب وغصة العشق ثلاثين سنة ، وهو جاهلي ضُرب به المثل كما ضُرب بعروة بن حزام **(26)** ، فما قيل فيه قول قيس بن ذُريح :

فما وجدت وجدي بها أم واجدٍ ولا وجد النهدي وجدي على هندِ

ولا وجد العُذريُ عُروةٌ في الهوى كوجدي ولا مَنْ كان قبلي ولا بعدي **(27)**

وكذلك قوله :

وفي عُروة العُذري إن مُتُ أسوةٌ وعمرو بن عجلان الذي قتلت هندُ

وبي مثل ما قد نابه غير أننـــــي إلى أجلٍ لم يأتني وقتـــــــــهُ بعدُ **(28)**

أمـا أبو عيينة فيذكر لنا عبد الله بـن العجلان وعروة بن حزام حيث يقول :

فما وجد النهدي إذ مات حسـرة عشية بانت من حبائله هنـــــــــد

ولا عروة العذري إذ طال وجـده بعفراء حتى شف مهجته الوجـــد **(29)**

وقال آخر يذكُر ابن العجلان وجميل وعروة بن حزام والمرقش الأكبر :

وقبلك مات من وجدٍ بهنـــــــــدٍ أخو هند وصاحبه جميـــــــل

وعروة والمرقش هام دهـــــراً بأسماء فلم يغنِ العويـــــــــل **(30)**

وفي شعر العذريين الأمويين إشارات غير قليلة إلى هؤلاءِ المتيمين الجاهليين – الذين هم محل الدراسة – ومَنْ امتد بهم الأجل إلى ما بعد ظهور الإسلام **(31)** ، الذين كانوا يرون فيهم مُثُلاً يتأسون بها في الرضا بالحرمان ، والصبر على آلام الوجد وتباريح الصبابة ، والاستسلام لهذا القدر المقدور الـذي قضاه الله عليهم . وفضلاً عمّا ذكرنا سلفاً ، يقول جميل بثينة :

وعاذلون ألحوا في مودتهـــــا يا ليتهم وجدوا مثـــــــــل الذي أجدُ

لما أطالوا عتابي فيك قلت لهـم لا تفرطوا بعض هذا اللـوم واقتصدوا

قد مات قبلي أخو نهدٍ وصاحبه مرقش واشتفى مـــــــن عروة الكمدُ **(32)**

فقضية المتيمين الجاهليين والإسلاميين ثابتة بشهادة العـذريين الأمويين أنفسهم ، وثبوت هذه القضية ينتهي بنا إلى نتيجة لا شك فيها ، أو – بعبارة أصحاب القضاء – إلى حكم لا يقبل النقض ، وهو أن الحب العذري ليس ثمرة للحياة الأموية ، وليس له من هذه الحياة سوى أسمه فقط ، وإنما هو قديم منذ العصر الجاهلي ، وثمرة للحياة الاجتماعية في هذا العصر **(33)** .

وأيضاً ما يثبت هذه الظاهرة قـول شعراء آخرين ومنهم البحتري حيث يقـول :

هوى لا جميل في بثينة نالـــه بمثلٍ ، ولا عبد بن عجلان في هندِ **(34)**

وجرير حيث يقول :

هل أنتِ شافيةٌ قلباً يهيم بكـــم لم يلقَ عروة من عفراء ما وجـدا

ما في فُؤادك من داء يخامـرهُ إلا التي لو رآها راهبٌ سجـــــدا **(35)**

ويقارن المجنون (مجنون ليلى) ما يلقاه بما لقيه العشاق مـن قبله ، فيرى أن عذابه أشد ، وأنه يلقى الموت يومياً أن لقيه العشاق مـرة واحدة **(36)** . يقول مجنون ليلى :

عجبتُ لعُروة العذري أضحـى أحاديثاً لقومٍ بعـــــــــــد قومِ

وعروةُ مات موتاً مُستريحـــاً وها أنا ميتٌ في كـل يـــــــومِ **(37)**

وفي قصيدة رائعة يذكر لنا المجنون أسمـــاء كثيرة ، منـها ما كان لشعراء ، ومنها ما كان لملوك ، ومنها ما كان لأنبياء ، وهـو يريد بكل هذا أن يقول : إن جميع هؤلاءِ لم يلاقوا الذي يلاقيه هو في حبه لليلاه :

لعمري ما لاقى جميلُ بن معمـــــر كوجدي بليلى لا ولم يلقَ مُسلـــمُ

ولم يلقَ قابوس وقيس وعـــــــروة ولم يلقه قبلي فصيحٌ وأعجـــــمُ

صبـا يوسف واستشعر الحب قلبُـــه ولا كاد داودٌ من الحب يسلـــــمُ

وبِشـــرٌ وهند ثم سعدٌ ووامـــــــقٌ وتوبةُ أضناه الهوى المتقســـــمُ

وهاروتُ لاقى من جوى الحب سطوة وماروتُ فاجاه البلاءُ المصمـــمُ

ولم يخلُ منه المصطفى سيدُ الـــورى أبو القاسم الزاكي النبيُ المكـــرمُ

أبيت صريعَ الحب أبكي من الهـوى ودمعي على خدي يفيض ويسجـمُ **(38)**

وفي غزل هؤلاءِ الشعراء تظهر الشحنة العاطفية القوية ، والتعبير عن معاني الحرمان العاطفي والألم والشكوى ، وكل ما يعتلج في نفس العشاق العذريين من مرارة الحب وقوته وتأثيره في نفوسهم ، واستيلاء العاطفة على قلوبهم ، ولا يمكننا أن نعدم من خلال قصائد الغزل الكاملة في أشعارهم صورة استحواذ الحب العفيف على قلوبهم ومشاعرهم بل لقد وصلت بهم هذه المشاعر حد الموت فمات بعضهم عشقاً **(39)** . وهذا عبد الله بن العجلان يصفه ابن قتيبة بأنه (من الشعراء العرب المشهورين الذين ماتوا عشقاً) **(40)** وقد ذكره بعض الشعراء فقال :

فإن مُتُ من الحُـــــــــــــبِ فقد مـــــــــــات ابن عجلان **(41)**

مما يدل على وجود الجذور الأولى للغزل العذري في عصر ما قبل الإسلام . ولعل في نصوص الغزل العذري في عصر ما قبل الإسلام ما يسفر من عواطف وأفكار عجيبة وعن مشاعر وجدانية خالصة تُعرب عن منشأ هذا الغزل في هذا العصر **(42)** .

وعنترة بن شداد : وإذا كان عبد الله بن العجلان يمثل في العصر الجاهلي طبقة الشعراء المغرمين العذريين الضعاف القلوب أمام جبروت الحب الصادق العنيف فإن عنترة بن شداد يمثل في عصره طبقة الشعراء العشاق الفرسان الذين يصارعون الأبطال ولا يهابون الموت ولكنهم يهابون الوقوف لحظة واحدة وجهاً لوجه أمام المحبوبة ، فها هو عنترة يخاطب عبلة بلهجة لا تخلو من تذلل ووعيد ، فيقول :

لا تصرميني يا عبيلُ وراجعي فـيَّ البصيرة نظرة المتأمل

فلرب أملح منك دلاًّ فـــاعلمي وأقر في الدنيا لعين المجتلي

وصلت حبالي بالذي أنـــا أهلُه مـن ودها وأنا رخي المطول **(43)**

وفي خضم المعارك وغمرة القتال يستحضر فم حبيبته ، فهو معه في الحلِ والترحال ، فـي السلم والحرب ، يشع ضياءً ويبرق كالسيف فيضيء أعماق القلب :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهند تقطر من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنهـا لمعت كبارق ثغـــــرك المتبسمِ **(44)**

ويتكـرر هـذا المشهد بعد كل حديث عــن بطولة ومعركة فـــي سياق المعلقة ، وكأنه استراحة محارب ، تدفعه بحماس أكثر للانطلاق مــن جديد إلى الميدان ، فمشاهد العاطفة تخفف عنه وتشدُّ من عزيمته في وقت واحد . ويتابع الشاعر واصفاً بطولاته وحبه ... والذي يهمنا هنا هو عذرية عنترة التي امتدت على طول ديوانه ، إن ظاهرة الغزل العذري في العصر الجاهلي ثابتة وواضحة وضوح الشمس في شعر عنترة ، ويكفينا هذا الشاعر دليلاً دامغاً على إثبات أصول وجذور هذا النوع من الغزل .

وعمرو بن كعب وعقيلة : وهو عمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك العرب المشهور . وعقيلة أبنت عمه وهي من أجمل نساء العرب وأعلمهن بالأدب وأحوال

العرب أياماً ووقائع ، خطبها إلى عمه فطلب منه مهراً يعجز عنه ، فزوجها لفزاري ، فهام عمرو على وجهه ، وكان عندها من العشق لعمرو أضعاف ما عنده لها . فلما كان بعد أيام دخل عليه صديقه فوجده غاصاً بالضحك مستبشراً **(45)** ، فسأله فقـال :

لقد حدثتني النفس أن سوف نلتقي ويبدل بعد بيننا بتدانـــــــي

فقد آن للـــــــدهر الخؤون بأنـه لتأليف مـــــا قد كان يلتئمان **(46)**

ثم شهق شهقه فاضت نفسه فيها ، قال الفريابي (فضبط اليوم الذي مات فيه فوجد موت عقيلة في ذلك اليوم أيضاً) **(47)** .

<u>وعمرو بن عبد مناة الخزاعي :</u> ويقال هو ابن عبد مناف جاهلي ، يقال إنه أول عاشق فـي العرب وهـو القائل فـي ليلى بنت عيينة الخزاعية :

أرى العهد من ليلى حديثاً ونائيـاً هو النأي لا ينأى الحبيب لياليا

هو النأي لا أن تشحط الدار مرة ولكنَّ نأيَ الدهر ألا تلاقيـــا **(48)**

وفضلاً عمّا ذكرت من الشعراء العذريين (المتيمين) في العصر الجاهلي هنـاك مجموعـة أخرى منهم أحبوا حباً عذرياً أحرقهم وصبروا على حرقه ، أو توسلوا بـه إلى زواج ، كالمخبل القيسي الذي أحب ميلاء بنت عمه **(49)** ، وعدي بـن زيـد العبادي الذي أحب هنـد بنت النعمان بن المنذر ، وتزوجها علـى كره مـن أبيها ، ثم قتله النعمان فترهبت بعده فـي الدير المعـروف بدير هنـد فـي ظاهر الحيرة ، وقـد أدركت الإسلام وخطبها المغيرة بن شعبة فردته **(50)** ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية الذي أحب هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس **(51)** ، وقيس بن الحُدادية الذي أحب أم مالك بنت ذؤيب الخزاعي وأسمها نُعم (52) ، وخزيمة بن نهد وهند **(53)** . وغير هؤلاء ممن ذكرهم بعض الدارسين **(54)** .

ومما تقدم يمكننا أن نستشف أن هذا الغزل وجد في الجاهلية ، وإن كان أقل كماً مما كان عليه عند عذريي الأمويين ، وهو ليس وليد العصر الأموي كما يذهب عدد من الدارسين من مثل " موسى سليمان " **(55)** ، و" أحمد عبد الستار الجواري " **(56)** ، و" شكري فيصل " **(57)** .

وفي الوقت الذي أصطف فيه إلى جانب مَن قالوا بنشأة الغزل العذري في العصر الجاهلي ، وليس مع الذين سبق ذكرهم من الدارسين أقول : يمكن عد الغزل العذري نواةً وأصلاً للاتجاهين العفيفين في العصرين الأموي والعباسي **(58)** ، وليس ينكر أنه ازدهر واستوى على سوقه في العصر الأموي ثم (اكتملت له سماته المميزة ، واستقرت تقاليده ومقوماته التي اكتسب معهـا صورتـه الأخيرة وشكلـه النهائي الثابت فالحب العذري ليس حباً أموياً ، ولا حباً انفردت به عذرة وحدها ، ولكنه حب البادية العربية في جميع عصورها . فهـو نبت صحراوي أصيل ، عرفتـه البادية العربية منذ أقدم عصورها ، وظلت ترعاه ، وتمد له الأسباب ، حتـى نما وازدهر) **(59)** في العصر الأموي .

هـوامـش البحـث

(1) ينظر : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام : ص 43 .

(2) وما أصدق تسمية هؤلاء العشاق بالمتيمين فالتتيم هو : التعبد . يقال تيمه الحب : يعني تعبده . وتيمته الحبيبة : استعبدت قلبه بحبها . ينظـر : القاموس المحيط : مادة (تيم) .

(3) ينظر : الحب المثالي عند العرب : ص 70 .

(4) ومنهم على سبيل المثال لا الحصر والاستقصـاء :

1 -الدكتور شكري فيصل في (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، ص250) .

2 -الدكتور شوقي ضيف في (العصر الإسلامي ، ص 359 – 361) .

3 -الدكتور أحمد عبد الستار الجواري في (الحب العذري ، ص 61) .

4 -الدكتور محمد غنيمي هلال في (النقد الأدبي الحديث ، ص 188) .

5 -حسان أبو رحاب في (الغزل عند العرب ، ص 169 – 171) .

(5) الغزل فـي العصر الجاهلـي : ص 181 .

(6) المصدر نفسه : ص 213 .

(7) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجـري : ص 54 .

(8) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلـي) : ص 214 .

(9) تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم من مطلع الجاهلية ...) : ج 1 / ص 368 . وينظـــر :

1 -الدكتور . يوسف خليف في (الحب المثالي عنـد العرب ... ص 57) .

2 -الدكتور . حسن جبار محمد الشمسي في (الغزل في عصر صدر الإسلام : ص 41) . وغيرهم من الباحثين الذين عزوا نشأة الغزل بشقيه إلى العصر الجاهلي ، وهو ما نرجحه .

(10) ليلى والمجنون فـي الأدبين العربي والفارسي : ص 19 .

(11) ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ص 250 . حيث يرى الباحث أنمّا من العبث أن نحدد ولادة هذا الفن الشعري .. ذلك أنه ظاهرة من الظواهر الفنية التي ترتبط أشد الارتباط بالظواهر الاجتماعية .. ومثل هذه الظواهر تمتاز بأنها ليست مفصولة عما قبلها ولا منفصلة عما بعدها .. فليس لها هذا التوقيت ، وليس في صورتها المكتملة التي نراها عليها ما يبيح لنا أن نقول إنها نشأت في هذا العصر أو استوت في هذه الفترة .

(12) ينظر :

1 -الغزل عند العرب : ص 205 .

2 -اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : ص 231 .

(13) ديوان المرقشين : 63 – 64 .

(14) المصدر نفسه : 43 .

(15) ديوان عبد الله بن العجلان النهدي : 19 .

(16) المصدر نفسه : ج 1 / ص 200 .

(17) ديوان المرقشين : 98 – 99 .

(18) المفضليـات : ص 233 . (المفضلية رقم : 54) . وديوان المرقشين : 67 .

(19) الأصمعيـات : ص 77 . (الأصمعيـة رقم : 53) .

(20) ينظر :

1 -دراسات فـــــي الأدب الجاهلي : ص 48 – 52 .

2 -تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام : ص 43 – 67 .

(21) ينظر : الأغانـي : ج 6 / ص 381 – 384 .

(22) ديوان المرقشين : 97 – 100 .

(23) ينظر : الشعر والشعراء : ص 116 .

(24) ديوان المرقشين : 94 – 96 .

(25) ينظر : الأغاني : ج 22 / ص 431 .

(26) ينظر : الغزل في عصر صدر الإسلام : ص 42 .

(27) ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى) : ص 72 . وهذان البيتان ينسبان أيضاً إلى جميل بن معمر (جميل بثينة) ، الديوان : ص 43 .

(28) الديوان : ص 73 .

(29) تزيين الأسواق : ج 1 / ص 129 – 130 .

(30) المصدر نفسه : ج 1 / ص 129 – 130 .

(31) ينظر :

1 - عروة بن حزام وعفراء ، الأغاني : ج 24 / ص 283 – 298 . وتزيين الأسواق : ج 1 / ص 129 – 139 .

2 - مالك بن الصمصامة وجنوب ، تزيين الأسواق : ج 1 / ص 150 – 152 .

3 - عبد الله بن علقمة وحبيشة ، الأغاني : ج 7 / ص 203 – 211 . وتزيين الأسواق : ج 1 / ص 153 – 155 .

4 - أبو مالك بن عبد الله بن مسعود وريا ، تزيين الأسواق : ج 1 / ص 167 – 169 .

5 - عتبة بن الحباب وريا ، تزيين الأسواق : ج 1 / ص 164 – 166 .

6 - مسعود بن خرشة وجُمل ، الأغاني : ج 21 / ص 163 – 164 . وغيرهم .

(32) ديوان جميل بثينة : ص 44 – 45 .

(33) ينظر : الحب المثالي عند العرب : ص 82 .

(34) ديوان البحتري : ج 1 / ص 529 . وفيه : ... ولا عمرو بن عجلان ... .

(35) ديوان جرير : ص 152 .

(36) ينظر : الحب بين تراثين : ص 92 .

(37) ديوان مجنون ليلى : ص 201 .

(38) المصدر نفسه : ص 75 .

(39) ينظر : الغزل في عصر صدر الإسلام : ص 42 .

(40) الأغاني : ج 22 / ص 431 . والشعر والشعراء : ص 429 .

(41) الشعر والشعراء : ص 429 .

(42) ينظر : الغزل في عصر صدر الإسلام : ص 42 .

(43) شرح ديوان عنترة بن شداد : ص 105 .

(44) المصدر نفسه : ص 134 .

(45) ينظر : تزيين الأسواق : ج 1 / ص 200 .

(46) المصدر نفسه : ج 1 / ص 199 – 200 .

(47) المصدر نفسه : ج 1 / ص 200 .

(48) معجم الشعراء للمرزباني : ص 37 .

(49) ينظر : الأغاني : ج 20 / ص 392 – 398 .

(50) ينظر :

1 -الأغاني : ج 2 / ص 393 – 430 .

2 -عدي بن زيد العبادي وديوانه ... (بحث) : ص 192 – 203 .

(51) ينظر : الأغاني : ج 9 / ص 36 – 40 .

(52) ينظر :

1 -الأغاني : ج 14 / ص 348 – 359 .

2 -تزيين الأسواق : ج 1 / ص 184 – 185 .

3 -شعر قيس بن الحُدادية ... (بحث) : ص 203 – 220 .

(53) ينظر : الأغاني : ج 13 / ص 54 – 57 .

(54) ينظر : الغزل في العصر الجاهلي : ص 213 – 243 .

(55) ينظر : الحب العذري : ص 25 – 54 .

(56) ينظر : الحب العذري نشأته وتطوره : ص 61 – 101 .

(57) ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ص 250 – 251 .

(58) ينظر : اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : ص 49 .

(59) الحب المثالي عند العرب : ص 7 - 8 .

مصـادر البحـث

♦ اتجاهات الغزل فـي القرن الثاني الهجري ، الدكتور . يوسف بكار ، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولـى ، 1409 هـ - 2009 م .

♦ الأصمعيـات ، اختيارات أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 213 هـ) ، تحقيـــق : الدكتور . قصي الحسين ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأخيرة ، 2004 م .

♦ تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية) ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1978 م .

♦ تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ، الدكتور . شوقي ضيف ، منشورات ذوي القربى ، قم ، الطبعة الثانية ، 1427 هـ .

♦ تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، الدكتور . شوقي ضيف ، منشورات ذوي القربى ، قم ، الطبعة الثانية ، 1427 هـ .

♦ تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، الدكتور . نوري حمودي القيسي ، والدكتور . عادل جاسم البياتي ، والدكتور . مصطفى عبد اللطيف ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1399 هـ - 1979 م .

♦ تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، للعلامة الطبيب الضرير داوُد الأنطاكي ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، 2003 م .

♦ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة) ، الدكتور . شكري فيصل ، مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الثانية ، 1383 هـ - 1964 م .

♦ الحب بين تراثين ، ناجية مراني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، المكتبة العالمية ، العراق – بغداد ، الطبعة الثانية ، 1985 م .

♦ الحب العذري ، موسى سليمان ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1961 م .

♦ الحب العذري نشأته وتطوره ، أحمد عبد الستار الجواري ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2006 م .

♦ الحب المثالي عند العرب ، الدكتور . يوسف خليف ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1961 م .

♦ دراسات في الأدب الجاهلي ، الدكتور . عبد العزيز نبوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1425 هـ - 2004 م .

♦ ديوان البحتري ، عُني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .

♦ ديوان جرير ، شرحه وضبط نصوصه وقدم له : الدكتور . عمر فاروق الطباع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1417 هـ - 1997 م .

♦ ديوان جميل بثينة ، تقديم وشرح وتعليق : الدكتور . محمد حمود ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1998 م .

♦ ديوان عبد الله العجلان النهدي ، عُني بجمعه وتحقيقه : إبراهيم صالح ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث " المجمع الثقافي " ، الطبعة الأولى ، 1431 هـ - 2010 م .

♦ ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى) ، اعتنى به وشرحه : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، 1425 هـ - 2004 م .

♦ ديوان مجنون ليلى ، شرحه وضبطه وقدم له : محمد علي شمس الدين ، منشورات النور للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1422 هـ - 2001 م .

♦ ديوان المرقشين ، تحقيق : كارين صادر ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1998 م .

♦ ديوان المفضليات ، اختارها أبو العباس المفضل بــن محمد الضبي (168 هـ - 784 م) ، تقديم وشرح وتعليق : الدكتور . محمد حمود ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1998 م .

♦ شرح ديوان عنترة بن شداد ، شرح وتعليق : عباس إبراهيم ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، 1998 م .

♦ شعر قيس بن الحُدادية ، (بحث) للدكتور . حاتم صالح الضامن ، مجلة المورد ، العدد الثاني ، المجلد الثامن ، 1979 م .

♦ الشعر والشعراء ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ) ، حققه وضبط نصه ووضع حواشيه : الدكتور . مفيد قميحه ، والأستاذ . أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، 1426 هـ - 2005 م .

♦ عدي بـن زيـد العبادي وديوانه ... ، (بحث) للدكتور . نوري حمودي القيسي ، مجلة الأقلام ، الجزء التاسع ، السنة الثانية ، 1386 هـ - 1966 م .

♦ الغزل عند العرب ، حسان أبو رحاب ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1366 هـ - 1947 م .

♦ الغزل في عصر صدر الإسلام ، الدكتور . حسن جبار محمد الشمسي ، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، الطبعة الأولى ، 2002 م .

♦ الغزل في العصر الجاهلي ، الدكتور . أحمد محمد الحوفي ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، 1381 هـ - 1961 م .

♦ القاموس المحيط ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تقديم : عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، 1424 هـ - 2003 م .

♦ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين (ت 356 هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، طبعة جديدة مصححة ، 1414 هـ - 1994 م .

♦ ليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي ، دراسات نقدية ومقارنة في الحب العذري والحب الصوفي من مسائل الأدب المقارن ، الدكتور . محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1983 م .

♦ معجم الشعراء ، للمرزباني ، أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت 384 هـ) ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراح ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1960 م .

♦ النقد الأدبي الحديث ، الدكتور . محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، 2005 م .